الفصل الخامس

لغـة الطفـل العالميـة
(قبـل النطـــق)

الطفل واللعب بالوَرَق

obeikandl.com

obeikandl.com

لغـة الطفـل العالميـة
(قبـل النطـق)

• من سن ٠ ـــ ١٨ شهراً

إنه يتكلم بكل جسمه: يخاطب ويحاور قبل أن ينطق ويعبِّر بلسانه. إنها لغة الاحتياجات والمطالب الوقتية العاجلة، في حركات ومظاهر تفهمها الأم وتتلقى سريعاً ما تتضمنه من رسائل وإشارات. لكن أحياناً تأتي صرخاته تعبيراً عن جهلنا بمقصده، واعتراضاً على عدم تلبية رغبته. إن «لغة» جسم الطفل لها «شفرة» أو رموز عالمية، من الطريف والمفيد معاً أن نعرفها، خاصة الأم... وهي لغة تتغير «مفرداتها» مع كل مرحلة من مراحل عمره السعيد، حتى يتم ثمانية عشر شهراً.

أولاً: من الميلاد إلى سن ثلاثة شهور

يبكي

لطفلك مطالب مختلفة نسبياً، لكنها محدودة: الرغبة في الأكل، في النوم، في تغيير ملابسه، وفي الشعور بالأمان. ولكي يُخبرك أو ينبهك أنك لم تحققي له رغبة من هذه، فهو لا يملك إلا وسيلة واحدة: البكاء.

لكنه لا يعرف بعد كيف ينوِّع في نغمات بكائه. فهي تقريباً على وتيرة واحدة. وعليك أن «تفْهمي» مدلول كل بكاء، أي أن تحللي «الشفرة» المبْهَمَة!

إنه يبكي. هل هو جائع؟ إذا أظهر أنه شبعان، فربما يريد أن يتجشأ. ساعديه على ذلك: ضعيه راقداً مستقيماً على بطنه فوق ذراعك. إنه يبكي. هل هو مبلل؟ هل هو مَبْرود[1] (أي بردان)؟ هل شديد السخونة من الحر؟ أو ربما يكون ببساطة «محشوراً» في سريره أو فِراشه.

بعد التحري، أي المراجعة و«التفتيش» على كل هذه المسببات للبكاء، وكان طفلك لا يزال يبكي، اسألي نفسك بحثاً عن سبب خافٍ: هل حدث تغيُّر أي «لخْبَطة» في أوقات تغذيته؟ إن كان الأمر كذلك، فإن بكاءه يعني «الاحتجاج» الشديد و«الاعتراض» الغاضب على هذه «الفوضى»! حقاً.. إذ على الرغم من أنه مولود صغير، إلا أنه يفضل ـ وهذا أنفع له ـ أن يأكل وينام في أوقات منتظمة.

مع مرور الأيام والأسابيع، يتعلم أميركِ الصغير إدخال تغييرات أو تعديلات على نغمة صوته في التعبير والنداء، أي في الصراخ والبكاء. لو أنك تأملتِ جيداً ودقَّقْت، لتبينْتِ أنها نغمات أو درجات صوتية لكل منها دلالته. بمعنى مثلاً: «أنا جائع»، وأخرى: «أنا جائع جداً»، وثالثة: «سأموت جوعاً!».. درجات متغايرة من الرغبة والاحتجاج. أما إذا كانت رغبة مع

---

(١) العرب تقول: نَوْمة الضحَى مَبْردة في الصيف مَسْخنة في الشتاء.

الشكوى، فإنها مثلاً تعني: «أريد استرخاء وقت القيلولة»، وتختلف النغمة عندما يريد: «دَعيني أستغرق في النوم»، وغيرها تعني: «هل حان وقت قول: تصبحين على خير؟»... وحينئذ، عليك أن تغيري سلوكك وتعاملك معه وفقاً لمستوى أو معنى كل نداء، أي نغمة كل بكاء، فيرْضَى ويستمتع بأمرين: تحقيق رغبته (أو تلبية حاجته أو قبول احتجاجه!)، وأيضاً: الاطمئنان إلى أن «التفاهم» بينكما سهل ميسور، بفضل «لغة» وضع هو مفرداتها، أو بالأحرى هيأها الخالق ـ سبحانه ـ له على هذا النحو.

وفي جميع الأحوال: هل تتركينه يبكي.. ويبكي؟ الإجابة بالطبع: لا. وإلا، فإنه سيظن أنه لن يتوقع شيئاً طيباً من جانبك. ولكن، تعلَّمي كيف تصبرين على بكائه قليلاً. لا تندفعي لاستجابته على الفور. وعليك أن تميِّزي بين «البكاء» الحقيقي، والبكاء العابر المصطنع.

وإن البكاء قد يعني أحياناً الشكوى من المرض. فتدْرِكين أنت ذلك على الفور، لأنه بكاء مصحوب بظواهر أخرى: كارتفاع الحرارة أو القيء..

نومـــه مضطرب:

إنه يبدو مضطرباً، قلقاً، مفزوعاً أثناء النوم، يَصْدر منه ما يشبه الشخير.

اطمئني. إن هذا لا يعني أنه يطلب منك النجدة! إنها بعض سمات النوم عند الأطفال حديثي الولادة. فهو يحرك عينيه، يفتحهما ويقفلهما، ويمتعض (يكشّر)، ويبتسم، ويحرك أطرافه خاصة رجْليه. عندما يحدث ذلك، قاومي رغبتك في حمله بين ذراعيك لأن هذا غالباً سيفسد عليه نومه فتأتي الإساءة من باب الإفادة. انتظري دائماً حتى يزعق[1] وينادي صراحة بالبكاء. وعندئذ تتدخلين.

يرفض الرضاعة:

هنا يعَبِّر باللسان...

---

(١) زعَق: كلمة عربية فصيحة. بمعنى: صاح.

يدفع بلسانه الثدي أو الرضَّاعة (البزازة). . فهو ببساطة شبعان (إذا كان في صحة جيدة). هل لم يأخذ القدر الكافي من اللبن؟ وما يُحْزنك في هذا؟ إن طفلك أدرى منك بالمقدار الذي يحتاجه في كل مرة، ويتوقف عندما يشعر أنه شبع. وطالما أن الطبيب المختص قد أكد لك أنه في صحة جيدة، فلا تخافي ولا تحزني حتى إذا أكل أقل مما تُعطينه أو تقدِّرين له.

منطو على نفسه

أو لغة: الصمتِ الرهيبِ!

لا يجب أن يعيش طفلك الصغير في جو تام الهدوء. إن ذلك يقْلقه، لأنه تعود على صخب وضجيج أجهزة جسمك حينما كان «محبوساً» بينها في الداخل! إلا أن هذا الانطواء على النفس ما هو إلا تعبير صامت لكي يُخْبرك أنك تَصْخبين أو تُحْدثين من حوله ضجيجاً أكثر مما يجب، فوق ما يَحْتمل. . وهذا لا يليق! ألا تراعين شعوره؟!

بكاء المساء

في المساء. . أو الليل، تنتاب كثير من الأطفال الرضَّع حالة من العبوس. . من القَرف. . تسترضينه فلا يرضى، تضاحكينه فلا يضحك. يئن و«يزنّ». يبكي بلا سبب، وأنتِ من أمره في عَجب!

ولكن، لا تجزعي! فتلك «حالة» شائعة عند أطفال حديثي الولادة كثيرين، يفسرها الأطباء وعلماء النفس المتخصصون بأنها: «مغَص الغروب». . بمعنى أنها تعبير عن «تفريغ» توتر أو ضغط عصبي زائد تجَمَّع أثناء النهار، أو بسبب استعادة دورة النوم التي كان قد تعوَّد عليها وهو جنين لم يخرج إلى الدنيا. . . والتعليلات عند هؤلاء العلماء الجهابذة كثيرة، إلا أن الرد على هذا التعبير قاصر محدود. أفضل الحلول وأبسطها: أن تحاولي تهدئته ومواساته. . وأن تتزودي بمزيد من القدرة على التحمل والصبر. إن عبوس أو «اكتئاب» المساء هذا يتلاشى عادة حول الأسبوع الثاني عشر من عمر الطفل.

دغدغة ودندنة:

في الشهور الثلاثة الأولى من عمره، يعبِّر طفلك عن نفسه بأصوات حلوة متقطعة.. نغمات صادرة من الحنجرة كأنها مقاطع صوتية منفصلة شجية: ها/ هو... تلك الأصوات الجميلة المحببة إلى السمع، يُصْدرها خاصة في فترات الراحة والهدوء بعد تناول وجباته.

انتهزي فرصة هذه الأوقات السعيدة البهيجة لكل منكما لكي تبدأ بينكما بواكير الحوار والأحاديث المتبادلة مستقبلاً، ورجِّعي ورددي معه تلك المقاطع الصوتية التي يترنم بها.. ومن المؤكد أنه سيكررها معك!

لغة الشفاه:

ضَعي طفلك الرضيع أمامك. واخرجي له لسانك، أو ضُمِّي شفتيك على شكل دائرة (O). فإنه سوف يقلدك ويفعل مثلك. وكأنه يقول بلغته: أدركْتُ أنكِ تريدين اللعبِ معي وأنا مستعد للتعلم»!

يضاحكك:

إنه لا يبخل عليك بالضحكات. فمنذ مولده، وأنت تلاحظين أن جانبي فمه يتمددان. ضحكاته الأولى ـ وأنت تدركين ذلك ـ ضحكات رد فعل منعكس. ثم، بين أسبوعه الرابع والثامن، تظهر ضحكاته الإرادية. إذا شاركته الضحك، أو إذا داعبته ولاطفته، أو إذا خاطبْته برقة وحنان، فإنه سوف يضحك لك أكثر وأطول، بمعنى أنه يرغب في تدعيم الاتصال بك.

في البداية، لا ترتبط ضحكاتك الصغيرة بشكل وملامح وجهك، فهو كأي وجه ثم تدريجياً، يتعرف عليه، ويُرسل إليه قهقهات خفيفة وكأنها «إهداء خاص إليك يا أمي». وتظل الضحكات حتى يبلغ الشهر العاشر، هي الوسيلة الوحيدة للتعبير عن رضائه وسروره.

يمد إليك ذراعه

تلك حركة صريحة في التعبير لا غموض فيها: إنها دعوة إلى الملاطفة والمداعبة. وفيها طمأنة لنفسه، وإخبارك أنه يدرك أنك تحبينه.

الانفعال مع المداعبة:

أنت تلاطفينه وتداعبينه فيأتيك الرد منه بأصوات الدغدغة الرقيقة المحببة. إنها بداية الضحك الحقيقي. هَدْهدي طفلك بقفزات خفيفة بين ذراعيك، أو امسحي (اذعكي) بطنه بلطف ورقة، فسرعان ما يبتسم ويضحك، ويصيح مبتهجاً، إنه يريد أن يقول لك: أنا أحب أن ألعب معك. إن الضحك مظهر رئيسي للاتزان السليم الجيد عند طفلك.

ويَغضَب:

إنه يضرب بيده وبرجله عندما تنظفين أنفه، ويُبدي علامة الامتعاض أو الاستياء (تكشيرة) حين تُجبرينه على تناول حسائه أو طعامٍ لا رغبة له فيه، ويصرخ إذا انتزعْتِ منه لُعبته. هذه المظاهر واضحة تماماً ومحددة، فهي تبين بالقطع ما يحب وما يكره. ما يرغب وما يرفض. وعند الكراهية والرفض لا تحاولي كثيراً الإصرار والإجبار والقهر. دعي رغبتك أنت، وما تحبين أنت، جانباً. إنه أفضل له.. ولك.

الضاحك الباكي

إنه باسم ضاحك. وبعد دقيقتين ينخرط في البكاء. هل يحيرك ذلك ويقلقك؟ لا.. إن طفلك ما زال صغيراً وأقل شيء يمكن أن يخل بتوازنه. يكفي لذلك ضوء شديد ولو قليلاً، أو ضجة مفاجئة، أو صفير عالٍ، أو صرير حاد، أو اقتراب وجه غير مألوف لديه.. عندئذ يتقلص وجهه، يلتوي فمه وتنقبض شفتاه، فتتساقط دموع غزيرة من عينيه. فاحْمليه على ذراعك، واحتضنيه، وهدِّئي مشاعره وأخبريه بكلمات رقيقة أن لا شيء يستحق

الانزعاج. دعيه يتعود منك على حركات ولمسات يحس بها ويعرف على الفور أنها تجلب إليه الأمان والاطمئنان والثقة.

تقلصات في الفراش

في هذه السن، لا يستطيع التعبير عن الآلام والمضايقات إلا بالبكاء. وبما أنه لا يقدر على البكاء المتواصل بلا توقف ساعات طوال (لأن ذلك يزيد من آلامه) فهو تلقائياً ـ أو غريزياً أو فطرياً ـ يبحث عن وضع يجعله يحس بأقل قدر من الألم. فيسكن عن الحركة، ولا يتأثر أو يهتم بما يجري حوله، ويطوي جسمه.. ينطوي على نفسه.. يتكور.. يحاول الهروب من الألم بما يشبه الغيبوبة. تلك دلائل وعلامات لا بد أن تنبهك.. وتزعجك.

يؤذي نفسه:

إذا كان يشد شعره من وقت لآخر، ويطأطىء الرأس نحو الأرض، ويعض... فذلك هو الأسلوب (أو مجموعة الأساليب) الوحيد الذي يتخذه للتعبير عن إدراكه «لوجود» جسمه وقدراته، وجذْب أنظار الآخرين.. بمعنى: أنا موجود، وقادر!

عاتب غاضب:

وهل يعرف الملاك الصغير عتاباً أو عقاباً؟ نعم!.. فها هي الأم تعود إليه بعد غيبة طالت ساعات وساعات. فيعتِب، ويغضب، ويَدِل (يتدلل) ولا يُمِل. إذا احتضنته أبْدى نفوراً، وإذا قبَّلته أدار وجهه. إنه ببساطة يريدها أن «تدفع الثمن»... أن تنال جزاء غيابها عنه طوال هذه الفترة. هذا من ناحية.

من ناحية أخرى: هو ما زال غضّاً صغيراً. لم يستقر في ذاكرته وترسخ كل المعارف والمعلومات والمكتسبات: إنه في حاجة إلى بعض الوقت «للتعرف» على الأم من جديد: وجهها، صوتها، ابتسامتها، طريقتها في مخاطبته، رائحتها.. هل هي مشتاقة تهفو إليه مثل اشتياقه؟... هنا، لا يجب

على الأم أن تفاجئه، أو تُخاشنه[1]، أو تقسو عليه: اجلسي إلى جواره. اظهري الاستحسان بكل ما يفعله. خُذي فسحة من الوقت لتطويعه وتأليفه وإيناسه. فلا تكاد تمضي بضع دقائق حتى ينطلق فرحاً بك، مُظهِراً سروره، فاتحاً لك قلبه وذراعيه.

إنه يغرد

«زِ.. مِ.. أُ... آ..».. إنها نغمات، لا مقاطع ولا كلمات، يستجمعها ويسترجها، ويرددها لنفسه. إنه معجب سعيد بسماع صوته. إذا اشتركْتِ معه في ترديد تلك النغمات الجميلات، ازداد طرباً، وازددْتِ منه قُرباً. إن هذه المشاركة الودودة الحانية هي «اللهجة» أو «اللغة» التي يريد أن يسمعها على الدوام منك، فهي تخفف عنده من قسوة وبشاعة التعنيف والعبوس الذي يزعجه عندما يخطىء أو يتبول على نفسه. على أية حال، إنهما طريقتان، أسلوبان، لهجتان في التخاطب معه، وتحديد أشكال العلاقات به.

● **وهنا ملاحظة:**

من الواضح ـ والشائع ـ أن الأب هو الذي يؤدي الدور الأكبر في إضحاك الطفل الصغير واللعب معه. أما التدليل والابتسام فيدخلان ـ غالباً ـ في دائرة «اختصاص» الأم.

ثانياً: من ٦ ـ ١٢ شهراً

يدرك الآن جيداً أنه كثير الاعتماد عليك، رغم استقلاله عنكِ جسماً ونفساً (مشاعر وانفعالات). إن كل الإشارات، أو اللغة، الصادرة من حركات جسمه في هذه المرحلة تعبِّر في مجموعها عن مطلب أساسي متكرر: «تعالي يا أمي... وبسرعة!».

---

(١) المخاشنة: ضد الملاينة والمداعبة.

يصرخ وينتحب لابتعادك

هذه أول «أزمة» حقيقية في حياة طفلك: أن يدرك ويعي شخصيته وفرديته.. يدرك ويعي أنك ـ أيتها الأم المبجلة ـ لست جزءاً متكاملاً مندمجاً معه. وهو يُبدي قلقه وجَزَعه وغضبه واستياءه بأساليب شتى: الصراخ، الدموع، الإعراض عن الطعام، الكف عن الابتسام والضحك. الانطواء على نفسه، الانزواء مع لعبته المفضلة.. إذا وعيْتِ أنت ذلك، وفهمت جيداً دوافع سلوكه، فإنك لن تتضايقي أو تغضبي فتعامليه بغلظة أو على نحو خاطىء. إن هذه الأزمة سوف تنقشع خلال بضعة أسابيع. تجنبي أن تغيري عاداته وعاداتك معه خلال تلك الفترة، واحرصي خاصة على عدم الابتعاد عنه لفترة طويلة. ولكن اطمئني: بمجرد ابتعادك عنه، سرعان ما يهدأ ويواسي نفسه... إلى حين.

يثور غاضباً ولفراشه رافضاً:

يأتي هذا السلوك بلا شك نتيجة لما سبق. فالنوم = الابتعاد. إنه يعني عنده المفارقة، الانفصال. لذا، فهو يستخدم كل ما يستطيع من حيل وأساليب لتأخير لحظة النوم. ولا يتردد في الاستعانة بأسلحة الضغط والقوة: البكاء، والنحيب الطويل، الصراخ الحاد المزعج، التأوه والتألم.. حتى ينفد صبر الأم، والأب أيضاً.. فيرضخان، يستسلمان!

إنها لحظة في حياته ليست بسيطة أو ثانوية. استخدمي فيها الرقة، والعطف، والصبر، ولكن مع الإصرار والحزم: عندما تغادرين غرفته ـ أو فراشه ـ بعد قضاء وقت مناسب إلى جواره لملاطفته والغناء له، لا تتراجعي أبداً وتعودي إليه إذا ناداك واستصرخك. كلِّميه وخاطبيه من بعيد، من المكان أو الحجرة التي أنت بها، لتهدئته وإشعاره أنك على اتصال به ولن تتخلي عنه. ولا تغيري مكانك حتى ينام.

تحية النوم

لا تغفلي أن تُشيري بيدك وتقولي بلسانك لطفلك ـ أو طفلتك ـ قبل

مغادرة فراشه أو حجرته: تُصبح على خير (أو تصبحين على خير). إنه حقاً لا يدرك معنى هذا الكلام، ولا في البداية مغزى هذه الحركة من يدك. لكنها في تقديره لون من المداعبة والتهدئة، ثم تصبح في ذاتها ـ مع التكرار اليومي ـ تعبيراً واضحاً عن انتهاء اليوم وما فيه، والإقبال على النوم بما يكفيه.

يتعلق بثيابك

في هذه المرحلة من العمر، يكون كثير الاقتراب منك، وهو يحبو، وعندما يبدأ في المشي. يمسك بطرف ثوبك (إن كان طويلاً) ويشده. إنه يريدك أن تنظري إليه، أن تبدي اهتماماً به. يدفعه إلى ذلك رغبته في الطمأنينة والأمان، وهو يشعر أنه بالتعلق بك ـ رغم استقلاليته ـ يكون أقوى على حماية نفسه وعلى مواجهة الحياة (والأصح والأدق: مواجهة ما حوله، لأنه لا يدرك معنى الحياة، وما حوله بسيط محدود). إنه يراك، ويلمسك، ويسمعك، ويشمك، ويحس جيداً أنك تحبينه. وبعد لحظات، سوف يتركك، مطمئناً، ليلعب بهدوء في غرفته أو ركنه المعتاد.

يدهش للغرباء:

كل وجه غريب يثير مخاوف طفلك. وعليك أن تعرفي ماذا يختزن في ذاكرته عن هذا الوجه. على أية حال، هذا الوجه الغريب سوف يُبعدك لحظياً عن ذاكرته وهو في غمرة الدهشة. لا تبتسمي إذن (لطفلك) ولا تنظري إليه، واتركيه يكتسب بنفسه الخبرة البسيطة والتعرف السريع على العالم الخارجي.

ويَهش للضوضاء

إذا كان الضحك مَظهراً انفعالياً محبوباً ظريفاً، فهو أيضاً بالنسبة لطفلك الصغير فرصة لاكتشاف مجموعة من الأصوات والنغمات هو غير محروم منها. في سن ١٠ـ ١٢ شهراً، يصبح الضحك مَظهراً ورابطة «اجتماعية»، إذ يحمل إجابة على كل ما يحدث حوله: صورة أو شكل هزلي، تقطيب الوجه (تكشيرة)، موقف طريف، دعابة، صخب مفاجيء...

ويضرب لُعبه

في سَوْرة (نوبة) الغضب يحَطم ما في يده، أو ما بناه من أشكال بالمكعبات، أو يضرب لعْبته، ويقذف بها إلى الأرض... في هذه الحالة، يحاول طفلك الصغير أن يمارس سُلطة تغيب عنه أحياناً في تيار الحياة اليومية. وعندما يقتحم هذا المجال الصعب من التعلم، يدرك أن هذا الأمر ليس سهلاً هيناً، ويكلفه مشقة. كلما ازدادت حركاته عنفاً، كلما كان ذلك تنبيهاً لك إنها ترجمة وتعبير عن توتره وغضبه.

ويناديك

با.. با.. ما.. ما.. دا.. دا.. إنه يناجي نفسه بطرب ومرح، ثم تَسْمعينه فجأة ذات يوم سعيد، وهو ينطق: با ـ با ـ با، ما ـ ما». فتطيرين فرحاً، ويقفز هو دهشة! وسرعان ما يكتشف أن هذه المقاطع الصوتية السحرية تملك موهبة ـ أو مقدرة ـ استدعائك على الفور. فكِّري جيداً في مدى استفادته من ذلك. ومع مرور الأيام، تتتابع الكلمات والنداءات، كل كلمة يجذب وراءها أخرى.

لكل طفل إيقاعه الخاص في النطق. لكن مشاركتكِ أنت في هذا المجال من التعلُّم لن يكون سلبياً أو لا تأثير له عليه. من حديثك معه، ومخاطبتك له سوف يكتسب شيئاً فشيئاً كل تفاصيل ودقائق لغتك أنت، لغة الأم، إن الطريقة التي تتَّبعينها معه في الكلام هي غاية في الأهمية. اذكري، وكرري، له أسماء اللعَب، والأشياء، والأدوات، والأشخاص... قدِّمي إليه بحراً من اللغة.. تكلمي، ولكن بقَدَر، وليس كسيل متدفق يُغرق ذاكرته. لتكن مخاطبتك له في جُمل بسيطة، قصيرة، في نغمة رقيقة وحذار أن تكون ركيكة، حانية ودودة وحذار أن تكون مبتَسَرة مُعْوَجَّة. شجعيه على الكلام والنطق الصحيح. ولا تَعْجلي. احرصي على أن يتعلم طفلك اللغة بسرور وابتهاج، وينطق الكلمات والجُمل البسيطة بفرح وانشراح.

والموسيقى أيضاً!

إن طفلك الرضيع يملك من الآن فصاعداً رصيداً لا بأس به من الأصوات والنغمات. وهو يستخدم صوته كآلة موسيقية، ويغيِّر «الإيقاع المتعاقب»[1] ـ كما يعرِّفه الموسيقيون ـ ويعدِّله من وقت لآخر، تبعاً لحالته النفسية والمزاجية والظروف من حوله. يقول: «إميل جنوڤرييه» أستاذ علوم اللغة بجامعة «تور» الفرنسية: «إن المحيطين بالطفل المقربين منه فقط (وهو في هذه السن) هم وحدهم الذين يستطيعون فهْم تلك الإيقاعات عن طريق الإصغاء إلى النبرات، أو النغمات، أو التنغيمات التي تصاحب هذا الأداء الصوتي، ويدركون معناها ومغْزاها. في سن ١٤ ـ ١٥ شهراً تصاحب هذه «اللغة المنغَّمة المبكرة» وتُعايش التيار المتدفق للكلمات المنطوقة».

وحين يجلس إلى المائدة مثلاً، أو في كرسيه الخاص الصغير، لا يكون في حاجة إلى تعلم واستخدام الكلمات التي تُفصح عن مشاعره ونفاد صَبره لأن وجبته من البطاطس المهموكة تأخرت قليلاً. عندئذ يستعين بملعقته ليطرق بها بكل ما لديه من قوة وحماس تعبيراً عن هذه الرسالة المنغمة الصاخبة «يا ماما.. إني جائع»!!

ثالثاً: من ١٢ ـ ١٨ شهراً

تزداد مفردات لغته يوماً بعد يوم. لكنه ما زال قاصراً ـ وليس عاجزاً ـ عن الإفصاح والتعبير بسهولة عن أعماق مشاعره وأفكاره. وهذا يضايقه. ولكي يفسر ويوضح، يواصل استخدام جسمه في التعبير... مع أشياء أخرى!

في «ذيلك» دائماً

إنه في واقع الأمر، لا يحتمل أن توجِّهي اهتمامك إلى أحد غيره.. فهو

---

(١) l'arpège.

غيور. يكفي أن تتشاغلي عنه بأخيه أو بأخته (أو: بأخيها وأختها)، أو بأبيه، أو بواحدة من الأهل أو الجيران، فيقترب منك إن كان بعيداً، ويلتصق بك لو كان قريباً. إنه يعاتبك: لماذا تنصرفين عنه؟!

والضحكات أنواع:

إنه يَمْلك مجموعة متنوعة من الضحكات. كل منها ـ ويجب أن تدركي ذلك ـ تخبرك بمقدار ما تنطوي عليه نفسه من فرح ومرح. عندما يكون مشْبَع الحاجات الأساسية وعنده الرغبة في المداعبة واللعب، يُطلق ابتسامة واسعة فتظهر أسنانه العليا من فمه، لذا يسميها المتخصصون «ابتسامة عليا»[١]. هذا الشكل أو النمط من الابتسام تصحبه حركة من الحاجبين وتغضُّن (انكماش) عضلات العين.

وعندما تغمره السعادة الحقيقية، تظهر على وجهه ابتسامة أوسع[٢] تعبر عن بهجته بالموقف.. بالحياة، فيكشف عن أسنانه السفلى، ويسميها الخبراء «ابتسامة عريضة» أو واسعة.

وله أيضاً ابتسامة أدنى من ذلك (لذا يسمونها: الابتسامة الدنيا)[٣] تظهر بعضاً من أسنانه السفلى لكنها تستثيرك، فهي تحمل معنى الاشمئزاز أو الازدراء، وربما التحدي والاجتراء. إنها تعبير عن الرفض، والاعتراض على عقاب بسيط جائر (ظالم)، أو إهانة غاشمة ما كان يجب أن تكون.

يلْذَع بغضبه:

إن هذا الوليد الصغير، الذي لم يكتسب بعد المفردات الأساسية للغة يشعر جيداً على البعد، فضلاً عن خضوعه لسيطرة العواطف والانفعالات المركَّزة بشدة أحياناً. فإذا كان يلذَع ويلسع ببكائه وصَخبه وصراخه فما ذلك إلا

---

(١) sourire supérieur.

(٢) sourire large.

(٣) sourire inferieur.

لأنه لا يملك الكلمات التي يعبِّر بها عن غضبه وغيظه واستيائه.

إن الطفل الشَّكس الغضوب يَشقَى بنزعة العنف وموجاتها العارضة. فيقع تحت تأثير دفْعها العداوني. إنها تُخيفه. فإذا أدركتِ جيداً، ووضعْتِ في حسابك أن سبب خشونته وسُخْفه وفظاظته هو إحباطه وتثبيطه وفشله، استطعتِ بنجاح إلزامه بالتوقف عند حدود معينة، تريحه وتطمئنه فتهدئه وتصبح طبعاً غلاباً من طباعه، وعادة مستقرة على امتداد حياته.

ويؤدي دور المهرج:

بشكل عام، وبعد أن «يتعلق» أو يلتصق بك (أو كما يقال: يشْبط فيك)، يَظهر أمامك في صورة الممثل الهزلي الصغير.. هذا هو أسلوبه الفطري في رجائه منك نسيان ما مضى، وتغليب الحب على الغضب، والرفق على العنف، والحنان على الهذيان. وهو يريدك أيضاً أن تعرفي أنه يحب المرح ويجيده!

ويَعَض

في اللحظة التي يكتسب فيها القدرة على المشي، ويكتشف فيها أنه أصبح أكثر استقلالية، يبدأ طفلك الصغير في عض كل ما يقع في متناول يده.. فلا يُدهشك ذلك ولا يستثيرك. إنه غِر[1] صغير، يستخدم إلى الآن فمه كيد ثالثة تحمل وتنقل إليه المعلومات عن البيئة المحيطة به. والعض في هذه الحالة أسلوب في الاكتشاف، والتعرف على الأشياء، وإشباع طبيعي لحب الاستطلاع. وحين يعضك أنت بأسنانه الحادة الصغيرة الجميلة، يريد أن يُخْبرك بحبه وإقباله على الحياة.. ويترك بها أثراً في جسمك كأنه «توقيعه» الذي يؤكد صحة ذلك!

ويرفض الطعام

ثم ها هو يقضي معك فترة طويلة من النهار. يلاعبك ويضاحكك

---

(١) الغِر والغرير: الساذج غير المجرِّب.

ويؤانسك، لكنك تمنعينه بحزم، أو بزجْر، عن الاقتراب من علبة الحلوى أو الفطائر (الجاتوه) أو فاكهة يريدها ويهواها.. إذن: «لسوف تريْن منِّي!». وبلا وعي أو إدراك منه، يعرف كيف يجعلك تدفعين ثمن حرمانه مما يشتهي: يُضْرب عن الطعام أو ما يشبه ذلك! لقد علمته التجربة أن فقدانه للشهية يقلقك ويفزعك، فلماذا لا يستخدم هذا ـ بإرادته ـ كوسيلة للعتاب ـ وربما العقاب ـ والضغط؟!.. لا تدخلي أنت في هذه «اللعبة».. سوف يتناول وجبته إن عاجلاً أو آجلاً!

وينزوي جانباً:

قد يقال عنه: «إنه طفل رائع مدهش.. هادىء.. عاقل.. حكيم..»! إنه مفرط في الهدوء والسلبية، وليس هذا حسناً دائماً. فقد يكون تعبيراً عن حرمانه من بعض العواطف، وحاجته الشديدة إلى دفء الاحتضان والحنان ورعاية أفضل وأكثر ممن حوله. إن سلوك بعض الأطفال الصغار (في هذه السن من ١٢ ـ ١٨ شهراً) يكون على هذا النحو من السلبية والعزلة والانزواء، وهو سلوك ليس فطرياً ولا طبيعياً، بل هو «اختيار» من جانبهم عقب ظهور «منافس» في البيت، كمولود جديد مثلاً، أو بعد انفصالِ الأبوين. وبينما يُظهر قليل من الأطفال طابع السلبية والانزواء والانطواء على أنفسهم هرباً ـ أو حماية لهم ـ من العالم الخارجي، يُبدي غالبية الأطفال في مثل هذه الأحوال أو الظروف الاجتماعية الأسرية مظهراً عدوانياً يتسم أحياناً بالشراسة والعنف.

تكلمي معه دائماً برقة ولطف. ورددي بين الحين والحين أنك تحبينه. أكثري من مداعبته حتى ولو تبينتِ في البداية أنه لم يتغير.. واصلي، واصبري، وأوْفيه حَقه. فقد لا يكون مذنباً، بل.. ضحية!

وتطفح بقع على جسمه

إن أسعد طفل في العالم، والأفضل صحة وتوازناً، قد تظهر على جسمه أحياناً أكزيما خفيفة أو حُمى طفيفة كتعبير عن شيء يضايقه أو يسير على غير

هواه. إذا تكرر ذلك، يكون مدعاة إلى الانتباه كأنه إنذار لتحاشي أخطار، إن طفلك في هذه الحالة ـ أو بالأحرى جسمه ـ يلفت نظرك إلى المبادرة بمساعدته. ولكن، ليس من السهل دائماً التقاط هذه «الرسالة العاجلة»، أو فك رموزها واستعياب محتواها. وعليك على الأقل، أن تتحدثي معه في أمور كثيرة تجذبه بشدة إليك، وتبدد مخاوفه، وتستثير خياله، وتمنحه أماناً وثقة، وتمهد له إقبالاً واعياً على الحياة، والأسرة، والمجتمع.. كلميه عنك، عن أبيه، عن أسرته، عن أحداث طريفة سبقت الحمل به أو صاحبته، أو أعقبته.. سوف يُصغي بشغف، ويتخيل ما وُصِف!

الطفل واللعب بالوَرَق

الورق، أيًا كان نوعه: ورق كتابة، صحف، كُتب، مجلات، تغليف، تنظيف... أداة شائعة شيقة طيِّعة ممتعة للطفل الصغير، وإضافة إلى ذلك، فإن الورق يفيد الطفل من عدة جوانب.

إنه مثير عشوائي، فجائي، تلقائي لحواس الطفل الخمس: لون وشكل الورقة ورؤيتها وهي تنكمش وتنفرد وتتحور وتتكور وتنثني وتتمزق، ملمسها ونعومتها أو خشونتها، شم رائحتها إذا كانت مطبوعة أو معطرة، سماع صوتها وهو يعبث بها أو يمزقها، عدم استساغة طعمها إذا أراد أن يتذوقها.. كل هذا سريعاً في خلال دقائق أو لحظات.

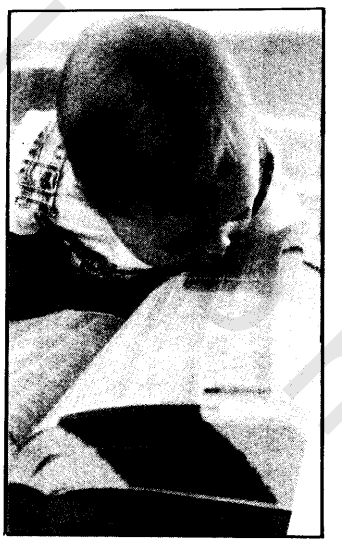

والورق يستثير خيال الطفل الصغير، خاصة أوراق التغليف الملونة أو اللامعة أو الشفافة..

فهي تجعله يفكر: ماذا يصنع بها؟ كيف «يحاورها» بأسلوبه ـ وهو لم يتعلم النطق بعد ـ كيف يحركها، ويغير شكلها، ويفرض عليها إرادته، ويفرغ فيها بعضاً من عواطفه ومشاعره: فرحةً أو غاضبة، ومن ميوله: مسالمة أو مشاكِسة: ثم يُضْفي عليها شيئاً من خياله أو تصوراته البسيطة المحدودة: فتصبح عنده صديقاً، أو مكروهاً، أو حيواناً، أو طعاماً.. ويتعامل معها بيده، ورجله، ونظراته، وتأملاته، بابتسامة رضا أو صرخة غيظ.. وبذكاء الأم ـ أو المراقب للطفل ـ يستمر ويطول الحوار الصامت الممتع بين الطفل الصغير والورقة ـ أو الأوراق ـ مهما تكن بسيطة هينة.

الطفل ـ أو الطفلة ـ الأكبر سناً (٢ ـ ٣ سنوات) يستمتع بعمل «أشياء» من الورق الملون، أو الأبيض، أو حتى ورق الصحف والمجلات القديمة: قد

يصنع مركباً، أو منظاراً، أو قناعاً، أو غطاء رأس، أو شكلاً لحيوان أو إنسان، أو أشكالاً هندسية (مربعاً، مستطيلاً، دائرة..) أو رداء.. وإذا اشترك أكثر من طفل معاً في هذه التسلية التي لا تخلو من تعليم وتدريب واكتشاف خبرات واكتساب معرفة، فإن التنافس والتقليد وحب التفوق وإثبات الذات، كل ذلك يزيد من متعة المشاركة، والتسلية، وشغل الوقت، فضلاً عن التزود بمهارات مبكرة. على أن يراعي الكبار أن يكون المقص الذي يستعمله الطفل غير حاد وغير مدبب الطرفين (مستديرين). ومن الطبيعي أن يصحب هذه العمل المسلي والضَّحك، وأحياناً الغناء، وصيحات الفرح والدهشة والبهجة والنجاح... أو صيحات الغضب والضيق بالفشل والخطأ، لا بأس.. فكلها تعبير طبيعي عن المشاعر، وأسلوب لاختزان الخبرات وشَحْذ المهارات. وإشراف الأم ـ أو المربية أو المراقب من الكبار ـ بين الحين والحين، بالتوجيه والتصحيح والإيحاء، يساعد على حسن استثمار الوقت، والتسلية، والكفاءة.

في مرحلة تالية، ترسم الأم ـ أو الأب أو المراقب من أفراد الأسرة ـ خطوطاً أو أشكالاً أو مساحات هندسية، ويُطلب من الطفل تفريغها بالمقص أو بدونه، للحصول على المنظر المقصود، ولو مجرد عمل شرائط ملونة أو منثنية أو ملتفَّة.. فإنه بذلك يتعود على التركيز في صمت، والتفكير في هدوء، وتحرِّي التزام القواعد والحدود، مع بداية معرفة العلاقات بين الأجزاء (وأيضاً الألوان) وربطها بعضها ببعض، أو فصلها بعضها عن بعض.

في هذه السن (٢ ـ ٣ سنوات) يكون ممتعاً للطفل ـ ومهماً في نفس الوقت ـ أن يعرف الفرق بين الخطوط (أو الحواف أو الشرائط) المستقيمة المستوية، والمائلة أو المنحنية، والمتعرجة والملتوية..

وليس كل الأطفال في إظهار مهاراتهم واستمتاعهم بالورق سواء. فلكل ميوله وقدراته وصبره على التعلم والاستمرار في اللعب. لكن الجميع ـ بلا استثناء ـ يجدون في الورق ـ بقدرٍ ما وعلى نحو ما ـ أداة شيقة طيِّعة للعب والتسلية.